137861 ـ تفسير قوله تعالى ـ عن النحل ـ : (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) .

السؤال

يقول الله تعالى في سورة النحل : (ثم كلي من كل الثمرات) فمن المعلوم أن النحل لا تأكل الثمرات ذاتها ، وإنما تمتص (تأكل) من أزهار الثمار فقط ، فما تفسير هذه الآية تمامًا ؟ أرجو التوضيح .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

هذه الآية من الآيات الكونية الدالة على عظيم خلق الله ودقيق إبداعه في صنعه ، وقد جعل عز وجل للبشر في خلق النحل وعجائب هدايته له ما يبهر العقول ويحير الألباب ، وهذا ما ندعو إلى التأمل فيه ، وليس التنقير عن شبهات يختلقها بعض الناس في المنتديات ، تذهب ببريق الحكمة والعظة من كلام الله عز وجل ، وهو أمر لا ينطلي إلا على ضعاف العقول ، أو من هانت عليه نفسه ، وهان عليه أمر دينه ، ففتح قلبه للشهوات ، وجعل نفسه تبعا لكل ناعق !!

يقول العلامة السعدي رحمه الله :

" في خلق هذه النحلة الصغيرة ، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة ، ويسر لها المراعي ، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها ، وهدايته لها ، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة ، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى ، وتمام لطفه بعباده ، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ، ويُدعَى سواه " انتهى.

" تيسير الكريم الرحمن " (444)

وعلى كل حال : فأساس هذه الشبهة الضعف البالغ في فهم أساليب اللغة العربية وأبواب البيان والمجاز فيها ، وليس أي شيء آخر ، والجهل أساس كل داء .

يقول الله تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) النحل/68-69.

فقوله تعالى : (كلي من كل الثمرات) يتضمن مسائل لغوية مهمة ، منها :

أولا :

قوله عز وجل (مِن) يحتمل ثلاثة معاني :

1- يحتمل أن يراد به (مِن) التبعيضية .

2-ويحتمل أن يراد به (مِن) التي هي لابتداء الغاية ، وهذان المعنيان من معاني حرف الجر (مِن) أشهر معانيها التي تفيدها ، كما ذكر ذلك ابن هشام في " مغني اللبيب " (ص/419-420).

3- ويحتمل أن يراد بها (مِن) التي هي لبيان الجنس .

فإذا قلنا إنها (مِن) التبعيضية : أفادت أن إلهام الله للنحل كان بأن تأكل جزءا من الثمار ، وليس كل الثمار ، وهذا الجزء هو ما تأخذه النحلة من رحيق الأزهار ، وإن كان العلماء المتقدمون يذكرون في كتبهم أن النحل يصنع العسل من أكله لأوراق الشجر أيضا ، بل ومن بعض الذرات التي تكون في الهواء ، ولكن العلم الحديث لا يذكر ذلك ، فاكتفينا بما يذكره العلم الحديث ، والقرآن الكريم ذكر (من) التبعيضية ، ولم يحدد هذا البعض الذي تأكله النحلة فتصنع منه العسل .

وإطلاق (الثمرات) على الأزهار هو من المجاز المعروف باعتبار ما سيكون ، تماما كقوله تعالى : (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) يوسف/36، وهو إنما يعصر العنب ، ولكن أطلق عليه الخمر باعتبار ما سيكون عليه عصير العنب بعد وقت ، وهكذا ، أطلق على الأزهار أنها ثمار ، باعتبار ما ستؤول إليه من الثمار النافعة ، بقرينة المشاهد المحسوس من معاينة كل الناس ، أن النحل إنما تقف على الأزهار ، ولا تأكل من الثمرات الحقيقية شيئا .

يقول القرطبي رحمه الله :

" قوله تعالى : (ثم كلي من كل الثمرات) : وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار " انتهى.

" الجامع لأحكام القرآن " (10/135)

ويقول ابن جزي الغرناطي :

" و (من) للتبعيض ، وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار ، وقيل المعنى من كل الثمرات التي تشتهيها " انتهى.

" التسهيل " (2/257)

ويقول أبو حيان الأندلسي رحمه الله :

" وظاهر (مِن) في قوله : (من كل الثمرات) أنها للتبعيض ، فتأكل من الأشجار الطيبة والأوراق العطرة أشياء يولد الله منها في أجوافها عسلاً .

قال ابن عطية : إنما تأكل النوّار من الأشجار " انتهى.

" البحر المحيط " (5/496)

وأما إذا قلنا : إن (مِن) هنا لابتداء الغاية ، فالمعنى المقصود أن النحل تأكل الرحيق ، ويكون أكلها مبتدأ من هذه الأزهار ، وليس من مكان آخر .

وإذا قلنا : إن (مِن) ههنا لبيان الجنس ، كقوله تعالى : (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) الكهف/31، أفادت معنى بيان ما ألهم الله النحل أن تأكله ، وهو الثمرات ، وليس أي جنس آخر من أجناس الطعام .

وكل هذه المعاني صحيحة ، لا تعارض بينها ، واتساع اللغة العربية يضيف إلى آيات القرآن الكريم آفاقا كثيرة من المعاني والدلالات البديعة الجميلة .

يقول الخطيب الشربيني :

" لفظ (من) هذا للتبعيض ، أو لابتداء الغاية " انتهى.

" السراج المنير " (2/273) .

ثانيا :

وأما قوله تعالى في هذه الآية : (كل الثمرات) :

فيحتمل أن تكون الكلية ههنا مقصودة ، فتدل الآية على أن من هدي النحل وجبلته أخذ رحيق الأزهار ، من أي زهرة كانت .

ويحتمل ألا يكون التعميم مقصودا ، بل أغلبيا على سبيل المجاز ، كقوله تعالى : (لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) البقرة/266.

والحقيقة أننا لا نستطيع الجزم بأحد هذين الاحتمالين ، إذ كل منهما معقول محتمل ، ولم نقف على دراسة علمية حديثة تحدد طبيعة الأزهار التي يقف عليها النحل ، ويصنع من رحيقها العسل المعروف ، على أن أكثر المفسرين حملوا ذلك على التبعيض ، وأن العموم غير مراد. قال ابن قتيبة رحمه الله :

" (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) أي : من الثمرات ، وكلّ هاهنا ليس على العموم ، ومثل هذا قوله تعالى : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ

رَبِّهَا) " انتهى .

" غريب القرآن " (ص/246) . وينظر : " البحر المحيط " ، لأبي حيان (2/326) .

وقال العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله :

" (كُلَّ) هنا مستعملة في معنى الكثير ، وهو استعمال وارد في القرآن والكلام الفصيح ، قال تعالى : (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) يونس/97 " انتهى.

" التحرير والتنوير " (23/160) .

وقال الدميري رحمه الله :

" القرآن يدل على أنها ترعى الزهر ، فيستحيل في جوفها عسلاً وتلقيه من أفواهها ، فيجتمع منه القناطير المقنطرة قال الله تعالى : (ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)، وقوله : (من كل الثمرات) ، المراد به بعضها ، نظيره قوله تعالى : (وأوتيت من كل شيء) يريد البعض ، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمرعى ، وقد يختلف طعمه لاختلاف المرعى " انتهى.

" حياة الحيوان الكبرى " (2/463)

والله أعلم .